بدايــات

(١)

لعل من المهم قبل أن أبدأ حديثي عن تجربتي في الانضمام إلى «الجماعة السلفية المحتسبة» وعلاقتي بحركي ومُنظّر هذه الجماعة جهيمان بن محمد بن سيف الضان العتيبي، أن أقدم إلماحة سريعة، أو مقدّمة تمهيدية لهذه العلاقة[١].

تعرّفت إلى الجماعات الإسلامية عن قُرب سنة ١٩٧٤ تقريباً، في الزبير لا كمُنتَمٍ إليها، وإنما كمُتديّنٍ على يدها، وأنا أعتقد أنّ تلك الفترة هي البداية الحقيقيّة للصحوة ولموجة التديُّن السياسي التي عمّتْ جميع أنحاء الشرق الإسلامي مع بدايات انحسار القوى التقدُّمية (اليسار عموماً) وانحسار المدّ القومي كجاذبٍ برّاق للجماهير، أمّا الخطاب

(١) وليعذرني الجميع فأنا أكتب من ذاكرتي بعد ربع قرن من حادث اقتحام الحرم وبعد ثمانية عشر سنة من خروجي من السجن حيث دخلته في ١٥/ ١/ ١٤٠٠ هـ وخرجت منه في ٢٦/ ٩/ ١٤٠٦هـ الموافق ١٥/ ١١/ ١٩٧٩م وحتى ٢٦/ ٤/ ١٩٨٦م.

العَلْماني أو الليبرالي، فلم يكن بالخطاب المنافس على المستوى التنظيمي أو الجماهيري؛ فأسعار البترول طفرتْ إلى أرقام خيالية بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، وبالتالي طفر معها الخطاب اليميني بشكلٍ عام، وبرز التمويل الداعم لكل ما هو ضدّ الكتلة الشيوعية أو القومية العربية التي تبنّتْ غالباً الخط الاشتراكي، وساد الصمت الرسمي حيال ممارسات الجماعات الدينية المُسيّسة وإن كانتْ خارجةً عن المألوف، ووجدت في أجواء الحرب الباردة خير مُعين على إعادة أجواء خطاب الإسلام السياسي. وكانت الموضة المنتشرة في تلك الأيام أشرطة الشيخ عبد الحميد كشك(٢)، فعرفت منها ما أصاب الإخوان المسلمين في مصر من معاناة في الحقبة الناصرية، كما تشكّلتْ عندي اقتناع بأن الإسلام له أعداءٌ كُثُر يريدون به شرّاً، وعلى رأسهم من يدّعون الإسلام ولا يعملون به، ولا يُحكِّمُونه في شؤونهم العامة ولا الخاصة، فتعرّفْتُ إلى كتاب **معالم في الطريق** لسيّد قطب، ولم أُحبّه لعدم فهمي له وقتها، و**فقه السنّة** لسيد سابق، قسم العبادات، ثمّ تعرّفْتُ إلى **صفة صلاة النبي** لمحمد ناصر الدين الألباني، وقيل لي وقتها إنه سلفيٌّ يلتزم بصحّة الحديث، ولأنني لم أكن أَسأل عن شيء حتى لا أُوصَمَ بالجهل، لم أفهم من قولهم: «سلفي» إلّا بشكلٍ سطحي.

---

(٢) الشيخ عبد الحميد كشك واعظ وخطيب مفوّه شبه ضرير دخل السجن سنة ١٩٦٦م وخرج منه سنة ١٩٦٨م وتكثّفت خطبه ودروسه الوعظية بعد هذا التاريخ إلى سنة ١٩٨٢م تقريباً، توفي سنة ١٩٩٦م.

ذهبت إلى الكويت سنة ١٩٧٦م وهناك تعرّفْتُ إلى الجماعة السلفية ورُموزها، مثل عبد الله السبت، وعبد الرحمن عبد الخالق، وعبد الرحمن عبد الصمد. وكنت أذهب إلى مُخيَّمِهم بشكل دائم، وأحضرُ ديوانيّاتهم، ففهمتُ السلفية من خلال السماع غالباً، فرفضتُ التمذهُب، ونفرْتُ من المذاهب الأربعة ومن أقوال العلماء وفِقهِهم بمباركةٍ غير مُعلنة من هذه الجماعة، كما فهمتُ معنى التوحيد عند هذه الجماعة، وتبنّيْتُ مواقف هذه الجماعة من الجماعات الأخرى، مثل الإخوان المسلمين، وجماعة التبليغ، وهما أكبر الجماعات الموجودة في الكويت من غير التيار السلفي. كما سمعتُ بوجود حزب التحرير الإسلامي، إلّا أنني لم ألْتَقِ بأحد منهم. والحقيقة أنّني قد سمعتُ مبكراً في الزبير عن جماعة الإخوان المسلمين وحزب التحرير أن الجماعة السلفية في الكويت في ذلك الزمن كانت كتلةً واحدة لم تتعرّض بعد للانشقاقات، وكانت فتيّةً، وكان أبناؤها يتحسّسُون من السياسة عموماً، وقد لا أكون مُبالِغاً إذا قلتُ إنّ عموم عناصرهم لا يملكون الوعي السياسي، ما عدا الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، وبشكل نسبي، ومن خلال العقلية السلفية، هذه المسألة ـ أعني السياسة ـ سيكون لها دورٌ في انشقاقٍ ستمرُّ به الجماعة في وقت لاحقٍ سيقسمها إلى قسمين: (سرورية وجامية).

وتعرّفْتُ في الكويت إلى شخصٍ سيكون له دور في تأسيس الجماعة السلفية في الرياض، أعني محمد الحيدري، واتّفقتُ معه على اللقاء في الرياض. وفِعلاً ذهبتُ إلى الرياض بعد ستة شهور من مُكوثي في الكويت، وسكنتُ في

عزبة[٣] يقيم فيها مجموعةٌ من معارفي و(بلدياتي) في الزبير، وهو بيت مبنيٌّ من الطين والحجر، صغيرٌ جدّاً عند دوّار أمّ سليم. أمّا نحن، ففينا من يعمل، وفينا من يدرس في معهد إعداد المعلّمين، وكان عددُنا سبعةً مُوزّعين على ثلاث غُرفٍ، أبعاد كلٍّ منها ٢×٣ أمتار، واحدةٌ منها فوق السطح.

وعملتُ في الرياض بمجرّد وصولي إليها في محلٍّ لبيع خامات التمديدات الكهربائية براتبٍ قدْرُه ٩٠٠ ريال. وكنت أقرأ كثيراً في كُتب السنّة: وقرأت في مصطلح الحديث، واقتنيْتُ بعض الكتب لمحمد ناصر الدين الألباني خصوصاً، وقرأتُ كتاب **التوحيد** لمحمد بن عبد الوهاب، واحتككْتُ ببعض الشباب الذين عرفتُ فيما بعد أنهم من الإخوان المسلمين. كان الإخوان المسلمون في الرياض مُوزَّعين على فئتين: فئة **رئيسةٌ** مُعترَفٌ بها من قِبل التنظيم الدولي للإخوان المسلمين، تتميّز بالتنظيم والمشروع الرُّؤيوي والتركيز أكثر على كتابات سيد قطب، ولا يرى أتباعُها البيعة لوليّ الأمر، ويُطلق عليها البعض: الإخوان المسلمون ـ الجناح القطبي، أو «القطبيّون»، والفئة **الثانية** «جماعة دار العلم»[٤] وهم مجموعة من الإخوان المسلمين محدُودِي التنظيم والعدد،

---

(٣) **العزبة** هي ما يطلق على البيت الذي يقيم فيه العزاب.

(٤) سُمّيت هذه الجماعة بهذا الاسم نسبةً إلى بيتٍ كان لهم في دخنة وسط الرياض كان يُطلق عليه دار العلم، وكان يحضر جلساتهم مجموعةٌ من المشايخ، منهم الشيخ إبراهيم الغيث الرئيس العام لهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سابقاً، والشيخ عبد العزيز آل الشيخ المُفتي العام، والشيخ عبد الله بن جبرين، رحمه الله، المُفتي المعروف.

يتبنّون كتابات حسن البنّا غالباً، ويرون البيعة لوليّ الأمر، وكان يُطلق عليهم: «البنّاويّون» نسبةً إلى حسن البنّا. كما كان هناك نشاط ملموس لجماعة التبليغ، ويتمركزون في المناطق الأكثر شعبيّةً، وكان لهم مسجد في إسكيرينة؛ ولهذا كان يُطلِق عليهم البعض «جماعة إسكيرينة». ومَنْحاهُم في الدعوة وعظيٌّ تربوي ذو توجُّهٍ صوفي سِلمي. وكان يوجد في الرياض مجموعاتٌ متفرقة في المساجد ليس لها أيُّ توجُّه، عموماً، غير التجمُّع على الالتزام الديني وأداء الفروض، وهي أشبه ما تكون بفِرق الحواري أو مراكز الأحياء الثقافية؛ فكلُّ مسجد فيه غُرفة، ولا بدّ وأن تجد فيها، غالباً، مكتبةً وشباباً مُلتفّين حول إمام المسجد في هذه المكتبة. فكانت هذه الأماكن خير بُؤر التجنيد لصالح الإخوان المسلمين، أو جماعة التبليغ. وليس بالضرورة أن تكون هذه المكتبات مُنتميةً إلى إحدى هذه الجماعات؛ فقد تكون مجموعة ليس لها أيُّ سبب بأي جماعة، ولا تمثّل إلّا قائدها الذي هو، غالباً، إمام المسجد. وقد تعرّفْتُ إلى إحدى هذه المجموعات، وذهبتُ معهم في رحلات خلوية، وسافرتُ معهم في رمضان من العام نفسه ١٩٧٦ ولأول مرة في حياتي لأداء العُمرة، وبالصدفة المحضة جلستُ في حلقةٍ فيها شيخ يُحاجج بالكتاب والسنّة، وحوله مجموعةٌ من الطلبة يسألونه ويردُّ عليهم بكل ثقة ورويّة، وتردّد في الحلقة اسم الألباني. وبعد ذلك سألتُ عن اسمه، فقيل لي إنه الشيخ علي المزروعي، وإنه مُدرّس في دار الحديث بالمدينة المنورة.

لعلّ هذا اللقاء هو الذي شكّل التحوُّل الفكري والحركي لديّ بعد ذلك!. وأتممنا العُمرة، وعُدنا في صبيحة العيد إلى الرياض عن طريق البرّ، وأنا على اقتناع أنه يجب أن أطلب العلم في دار الحديث بالمدينة المنوّرة على يد الشيخ علي المزروعي. وهكذا قدّمْتُ استقالتي في أواسط ذي القعدة من المحل الذي كنت أعمل فيه، ولَمْلَمْتُ «عَفْشِي»، وتوجّهْتُ إلى المدينة المُنوَّرة جوّاً في صباحٍ باكر..

ووصلت إلى دار الحديث، وكلّمْتُ الشيخ علي المزروعي، وبذل جهده من أجل دخولي معهد دار الحديث فلم يتيسّر ذلك؛ لانتهاء فترة التسجيل، فكتب لي علي المزروعي خطاباً إلى أمير الإخوان(٥) في مكة عايض بن دريميح، وأوصاني أن أسأل عنه أو عن عبد الله الحربي، وركبتُ سيارة أجرةٍ متوجّهةً إلى مكة في الوقت نفسه.

ـ أ ـ

في عام ١٩٧٧م افتُتح أول محلّ للتسجيلات الإسلامية على مستوى المملكة، وذلك في الرياض في عمائر الدغيثر المطلّة على شارع البطحاء، وكان عبارة عن فتحة صغيرة جدّاً تبلغ أبعادها ٢×٤ أمتار، وكان محلَّ تسجيلاتٍ إسلامية وحيداً بين مجموعة من محلات الأغاني. وكان حدَثاً مُهمّاً بين الإسلاميّين، حتى إن بعض المشايخ زاروا هذا المحل،

(٥) الإخوان هو ما يُطلق على المنتسبين إلى الجماعة.

وباركوا لصاحبه هذه الخطوة، وأبدَوْا استعدادهم لدعمها، وعرضوا خدماتهم على صاحب التسجيلات...

في تلك الفترة لا يُستغرب أن تسمع صخب الأغاني المنبعثة من محلات تسجيلات الأغاني قبل افتتاح محل التسجيلات الإسلامية (تسجيلات اليمامة)، أمّا بعد أن افتُتح محلُّ تسجيلات اليمامة، فقد كان من الصعب جدّاً أن يُسمع صوتُ مُغَنٍّ واحد؛ لأن صاحب محل التسجيلات الإسلامية يعترض عليه. وكان يكفي أن ينطلق صوت القرآن الكريم من محل التسجيلات الإسلامية حتى يُسكت جميع أصوات (الأغاني)، ومَنْ يعترض على ذلك من محال تسجيل الأغاني برفع صوت مُغَنٍّ يُتّهم بالتشويش على القرآن الكريم وعدم احترام القرآن الكريم!.

وهكذا، فتح محل صغير للتسجيلات الإسلامية غيّرت جميع محال التسجيلات الخاصة بالأغاني نشاطها، أو غيّرتْ أماكنها.

في تلك الفترة لم يكن يوجد في الرياض إلّا مكتبة تجارية واحدة متخصّصة بالكتاب الإسلامي، وخصوصاً كُتب الإخوان المسلمين، هي (مكتبة الحرمين) في عمائر الدغيثر نفسِها المُطلّة على شارع البطحاء. نعم، يوجد مكتبات تجارية أخرى، إلّا أنّ (مكتبة الحرمين) أكثر انتقائيةً لكُتب الإخوان المسلمين خصوصاً، والكتب الحركية على وجه العموم، والكتب السلفية المحايدة في تلك الفترة، بعيداً عن كُتب السجال والردود؛ إذ إنّني لم أجد عندهم من كتب الألباني

إلّا **مختصر صحيح مسلم** للمنذري، والذي علّق عليه الألباني، و**صفة صلاة النبي** و**الزواج الإسلامي السعيد**. أمّا الكتاب الذي أثار ردود العلماء **حجابُ المرأة المسلمة ولباسُها في الصلاة**، فغير متوافر غالباً، إلّا أنّ بعض الردود عليه موجودة، مثل ردّ الشيخ عبد القادر حبيب السندي، والشيخ الأنصاري، وغالباً وقتها كانت توزع مجاناً هذا الكتاب، **حجاب المرأة المسلمة** الذي رجّح فيه الشيخ جواز كشف المرأة وجهها وكفَّيْها وأنهما ليسا بعورة، خلافاً لِما هو سائد بين علماء المذهب الحنبلي خصوصاً. وعُدّت هذه الفتوى من قِبل الشيخ نقطةً سوداء في مسيرته العلمية بين علماء نجد عموماً. يُضاف إلى ذلك دعوةُ الشيخ إلى عدم التمذْهُب بأحد المذاهب الأربعة المتبوعة (المذهب الحنفي والمذهب المالكي والمذهب الشافعي والمذهب الحنبلي) والأخذ من الكتاب (القرآن) والسنّة الصحيحة مباشرةً. هذه الأمور سيكون لها تبعات أخرى في ما بعد، خصوصاً وأن (الجماعة السلفية المحتسبة) غالَتْ جدّاً في مفهوم الأخذ بالكتاب والسنّة، إلى درجة أنها أهملتْ إجرائيات الفهم لهذين الأصلَيْن، مثل اللغة، وأصول الفقه، بل شاع بين بعضهم ذمها لأنّ الصحابة لم يكن عندهم هذه العلوم، وذمّ كل ما يمتُّ إلى الرأي أو القياس أو الاستحسان بصلةٍ، ناهيك بالمصالح المرسلة، وفِقْهِ النوازل، وهذه أشياء سابقة لأوان ذِكرها هنا.

في تلك الفترة لم يكن لرجال الحِسبة كلُّ هذا التسلُّط

الذي نشهده هذه الأيام. فقد كانوا كباراً في السنّ تتحكّم في انفعالاتهم الحِكمةُ والموعظة الحسنة، ولم ينظر إليهم المجتمع باعتبارهم جسماً غريباً عنه، بل كانوا ضمن نسيجه، وكانوا يُسَمَّون: «النواب»، وكان دورهم الغالب هو التذكير بوقت الصلاة. كان النائب الأخ الأكبر للجميع، ووالداً مسموع الكلمة، ولم يكن على خصام مع مجتمعه، بل كان يسدّد ويُقارب بالتي هي أحسن، بعكس نواب هذه الأيام الذين أصبحوا ينظرون إلى مجتمعاتهم نظرة الريبة والشكّ، فأصبحت الريبة من كلّ شيء هي الأصل، وأصبح تتبُّع عورات الناس الذي نُهينا عنه هو المسلك السائد بينهم، فصنعوا فجوةً مشينة بينهم وبين مُجتمعهم، وكرّسوا صورةً لرجُل الحسبة شبيهةً بصورة رجال محاكم التفتيش في أوروبا وأجوائها.

من الأمور التي تميّزت بها تلك الفترة حدّةُ الصراع على العناصر المتديّنة حديثاً وخصوصاً طلاب المدارس، ففي كل مدرسة تقريباً تياران أو ثلاثة (التيار القُطبي، وتيار حسن البنّا وكلاهما إخوان مسلمون، وتيار جماعة التبليغ). وكان هناك وراء الكواليس جدال دائم حول استقطاب شخص ما إلى جانب أحد هذه التيّارات، قد يصل أحياناً إلى المشادّات الكلامية، ولم أسمع أنّ هناك عنفاً جسديّاً مُورِس ضدّ شخص حَرَكِيّ يملك القدرة على استقطاب شباب العناصر الأخرى في الرياض، لكنني سمعت من مصادر متعدّدة أنّ مثل هذا الفعل قد مُورِس في الكويت. يُقال إنّ أحد شباب

الإخوان المسلمين دعا أحد السلفيّين الحركيّين إلى منزله، وحينما استقبله ورحّب به، دخل الشابّ الإخواني إلى داخل البيت، وعاد بعد بُرْهةٍ وقد لبِس ملابس «الكاراتّيه» وطبّق جميع ما تعلّمه في جمعية الإصلاح الاجتماعي من فنون القتال والاشتباك، عِلماً أنّ الشابّ السلفي كان هزيل الجسم. وكانت فضيحة ما بعدها فضيحة، وتدخّل كبار الجماعتين لِتلافي تبِعاتها وفضّ السامر من دون أن يبحث في مثل هذه الممارسات ومؤشّراتها المستقبلية.